## دخول الإسلام في غرب أفريقيا

لقد ثبت وجود الصلة بين شمال أفريقيا وغربها قبل ظهور الإسلام بمئات السنين، لذلك صار من السهل أن يصل نفوذ الإسلام إلى غربها على أثر دخوله إلى شمالها. ولقد سجل التاريخ سرعة نفوذ الإسلام في أفريقيا بل في العالم كله بصورة مدهشة في مدة وجيزة، لم تستطع أية عقبة منيعة أن تقف أمامه إلا ذللها وظهر عليها واجتازها إلى ما وراءها.

وكلما اعتنقت الإسلام قبيلة تحملت لواء الدعوة الإسلامية إلى ما تليها من القبائل المجاورة. هكذا فعل البربر والونغاره والفلانيون والهوسا، وفق ما كانت تفعل الصحابة الذين وصفهم البوصيرى بقوله:

من كل منتدب لله محتسب ... يسطو بمستأصل للكفر مصطلم

حتى غدت ملة الإسلام وهي بهم ... من بعد غربتها موصولة الرحم

مكفولة أبدًا منهم بخير أب ... وخير بعل فلم تيتم ولم تئم

**عقبة بن نافع فاتح غرب أفريقيا:**

صرح الشيخ عبد الله بن فودى في كتابه «تزيين الورقات» بما نصه مع تصرف يسير «إن دخول الإسلام إلى الغرب -يعني غرب أفريقيا- كان بالقرن الأول الهجري على يد عقبة بن نافع الصحابي الجليل، إذ أنه وصل إلى قبيلة من قبائل الروم فدعاهم إلى الإسلام فأسلم ملكهم من غير قتال وتزوج عقبة بنت ذلك الملك واسمها بج منغ، فولدت له أولادًا نشأوا في بلاد أمهم، وتكلموا بلغة أبيهم..».

ثم قال: «هذا ما تواتر عندنا وأخذناه عن الثقاة العلماء الذين يخرجون من بلاد فوتا».

وعليه قوله في بعض أشعاره:

وعقبة جد للفلانيين من عرب ومن تور كانت أمهم «بج منغ» عو

وإذا رجعنا إلى تاريخ الفتوحات الإسلامية بأفريقيا، وجدنا أن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه في خلافته ولّى عمرًا بن العاص على الشام ومصر، ثم ولى عمرو بدوره عقبة بن نافع على شمال افريقيا وفتحها وأسس بها مدينة القيروان وجعلها مركزًا لانطلاق دعوته، وترك بها جالية عربية إسلامية، ثم رجع إلى مصر. ولم تتسع فتوحاته هذه المرة إلى الأرجاء المجاورة.

ولما تولى عليها مرة ثانية في عهد يزيد بن معاوية واصل فتوحاته صوب الغرب حتى وصل بلاد السوس حيث أسلم قبائل المصامدة، ثم استمر حتى انتهى إلى البحر المحيط، وأقحم فرسه فيه حتى بلغ نحره وقال قولته المشهورة: «اللهم إني أشهدك أن لا مجاز ولو وجدت مجازًا لجزت» ثم انصرف راجعًا، وسار نحو الجنوب حتى صادف قبائل صنهاجة وأسلموا على يديه، ودخل طنجة واستمر في أطراف بلاد السودان، ودخل بلاد غانة وتكرور وأسلم على يديه بعضهم. وفي طريق عودته إلى «القيروان» قتله بعض البرابرة، وهو أول زعيم إسلامي استشهد في أفريقيا.

وفي ذلك ما يبرر قول ابن فودي، إذ ليس ما يمنع عقبة من السير صوب الجنوب في بلاد السودان كما منعه البحر عن السير صوب الغرب، لذلك

يحتمل أن يجتمع بقبيلة من بقايا الروم وأن يسلموا على يديه وأن يتزوج منهم بنتهم وأن يخلف فيهم أولادًا، تنشأ منهم القبيلة الفلانية التي اشتهرت بالعلم والدين وحماية الإسلام وإقامة دولته على أعقاب الأجيال المتعاقبة في غرب أفريقيا.

وممن تولى على أفريقيا بعد موت عقبة: **موسى بن نصير** الذي سار على نهج سلفه وأعاد إلى الإسلام البرابرة المرتدين، حتى أحسنوا إسلامهم، وشاركوا في فتح أفريقيا والأندلس.

ثم تولى عليها في عهد عبد الملك بن مروان: **زهير بن قيس** وتوسع في فتوحاته حتى استشهد بها.

ثم تولى عليها عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة فغزا بلاد السوس وحفر سلسلة من الآبار في الصحراء، واستطاع أن يصل الشمال بجنوب الصحراء صلة قوية تسهل الصعاب في سبيل نشر الإسلام ببلاد السودان.

ولم يزل الخلفاء الأمويون يهتمون بشأن غرب أفريقيا ضمن اهتمامهم بشمالها التي هي تابعة لمصر في جميع تلك الأدوار التاريخية.

وكانت الفتوحات تتوسع في كل مرة إلى أن سقطت الدولة الأموية، وقتل أعيانها وأنصارها ولاذ بعضهم بالفرار إلى الأندلس كعبد الرحمن الداخل، وبعضهم إلى مجاهل بلاد البربر كإدريس بن عبد الله العلوى مؤسس الدولة الإدريسية بالمغرب سنة ١٧٢هـ.

وهكذا يوجد هناك الذين تغلغلوا في بلاد السودان واختبأوا بها حتى الممات وطويت أسماؤهم في سجل النسيان.

لهذه الحركات كلها آثار ونفوذ تمتد من الشمال إلى الغرب، وتوحي إلى السودان، كيف يقيمون دولتهم الإسلامية التي لمعت فيما بعد بغرب أفريقيا.

●●●

obeikandl.com

## الممالك التي قامت في غرب أفريقيا

لقد شهدت هذه البلاد ألوانًا مختلفة من الدول وعرفت أشكالاً متباينة من الحكومات في مختلف العصور المتعاقبة من الزمان.

لقد تأسس بعض تلك الدول على أيدي السودان من السكان الأصليين، وسبق البيضان إلى تأسيس بعضها قبل أن تنتقل إلى السودان.

وامتد بعضها من الشمال عبر الصحراء، وقام بعضها من نفسها في بلاد السودان وهي كثيرة متعددة وأعظمها وأشهرها غانة ومالي وسنغي وبرنو.

**مملكة غانة:**

نشأت هذه المملكة منذ القرن الثاني الميلادي وتولى عليها نحو أربعة عشر ملكًا من البيض قبل أن تتحول إلى السود. وربما كان أولئك البيض من القرطاجنيين أو الرومان، الذين اختلطوا بقوم من السكان الأصليين وتفرع منهم الونغاره.

ولقد اشتهرت غانة عند العرب شهرة مستفيضة حتى زارها الكثير من رحالتهم، وكتبوا عنها في مؤلفاتهم، واشتهر من هؤلاء الكتاب ابن حوقل الذي زار مدينة أودغشت إحدى مدن غانة الشمالية «٩٧٢»م.

ثم زارها محمد البكري ١٠٢٨، وذكر أنها بلغت أوج مجدها في القرن العاشر.

وصف البكرى أنه وجد غانة مقسومة إلى قسمين عظيمين: الحي الوثني والحي الإسلامى. وفي الحي الإسلامي إثنا عشر مسجداً تقام الجمعة في أكبرها وفي كل مسجد إمام ومؤذن وقارىء ومعلم.

وفي الحي الوثني قرب القصر الملكي مسجد يصلي فيه المسلمون من حاشية الملك.

وقد امتدت حدود مملكة غانة إلى بلاد نيجيريا شرقًا وحدود الصحراء شمالاً، والغابات الاستوائية جنوبًا والمحيط الأطلسي غربًا.

وفي كتاب «الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى»: إن أهل غانة كانوا في صدر الإسلام من أعظم أمم العالم، وإن بها دولة من القوم العلويين يُعرفون ببني صالح بن عبد الله بن الحسين بن على، ثم ذهبت دولتهم في المائة الخامسة. وربما كان صالح هذا من إخوان إدريس السالف الذكر في الدولة الإدريسية.

وقد هاجم غانة البرابرة المرابطون في القرن الرابع الهجري واحتلوها، تحت قيادة الزعيم اللمتوني أبي بكر بن عمر، وبذلك انكسرت شوكتهم بعد نحو ألف عام من نهضتهم.

وعلى أيدي الونغاريين الغانويين انتشر الإسلام إلى بلاد «كاشنة وكانو» بالقرن الخامس الهجري، وذلك بعد سقوط دولتهم وانتشارهم في مختلف الأنحاء والأرجاء.

**دولة المرابطين:**

لقد تعاون رجلان على تأسيس دولة المرابطين هما: عبد الله بن ياسين، والأمير أبو بكر بن عمر اللمتوني.

وحاصله أن قبائل صنهاجة الذين أسلموا من زمن بعيد، وكان منهم أمراء مسلمون، كالأمير محمد بن تفارت اللمتونى والأمير عبد الله ابن محمد الذي حمل لواء الجهاد حتى مات في إحدى المعارك، ثم الأمير يحيى ابن إبراهيم شيخ قبيلة جدلة الذي حج إلى بيت الله، وجدد عزمه بعد رجوعه على نشر الإسلام وإصلاح حالته في بلاده، واتصل بشيخ علماء السوس أبي محمد اللمطى، وطلب منه معلمًا يرشد قومه إلى دين الله، فوقع اختيار الشيخ أبي محمد على عبد الله بن ياسين الذي ولد في بلاد جزولة بسوس الأقصى، وطلب العلم في الأندلس وعاد إلى وطنه، فانضم إلى جماعة الشيخ أبي محمد الذي عينه ليذهب مع الأمير يحيى إلى واحات الصحراء للعمل الإسلامي بها، فصار يرشد الناس ويعلم القبائل الملثمين بعناية الأمير يحيى ورعايته، بعد موت الأمير أحس بمضايقة أعدائه له فاعتزل الناس إلى جنوب الصحراء هو والقليل من تلاميذه، وصاروا يعيشون عيشة البداوة على مياه الغابات وثمارها وحيواناتها.

فبنى في حوض السنغال رباطًا وصار تلاميذه يتوافدون عليه في مكان رباطهم حتى بلغوا ألفًا وسماهم مرابطين، ولم يزل عددهم يربو مع الزمن.

ثم أمرهم أن يقوموا بالدعوة إلى بلاد السودان؛ ثم قاموا بالجهاد فحاربوا ممالك الزنوج، وأسسوا دولة المرابطين في جنوب الصحراء.

وجعلوا عاصمتها أوداغشت ١٠٢٠م. ثم عين عبد الله بن ياسين الأمير بكر بن عمر أميراً في ناحية منها، كما عين أخاه يحيى بن عمر أميراً في ناحية أخرى. وجاهد يحيى حتى استشهد في حروبه مع الزنوج، وبقى أبو بكر قائداً عامًا يفتح الممالك والأقاليم في السودان حتى شملت فتوحاته جميع الجهات المعمورة من شمال السنغال وشمال غانة وشمال الداهومى وشمال نيجيريا.

واتجه ابن ياسين إلى شمال أفريقيا وعين بها يوسف بن تاشفين أميراً، فبنى هذا الأمير مدينة مراكش ٤٥٤هـ واتخذها قاعدة مملكته.

ثم استعان ملك الأندلس به على الفونس ملك قشتاله، فذهب لنجدته فنجح في ذلك فتلقب يوسف هذا بأمير المؤمنين في المغرب ٥٠٠هـ.

وأما أبو بكر فظل يجاهد في بلاد السودان ويفتح عواصمُها وينشر بها الإسلام. وقد هاجم غانة وتكرور ومالي وأدرجها في المملكة المرابطية، ولم يزل يجاهد إلى أن قتل في إحدى المعارك سنة ١٠٨٧ ولعدم وجود من يخلفه في المحافظة على دولته بالسودان، زالت دولة المرابطين فيها، وبقيت في مراكش والأندلس.

**مملكة مالي:**

تأسست منذ زمن بعيد وتملك عليها اثنان وعشرون ملكًا من البيضان ولما انقرضوا خلفهم السودان وقد أدرجتها غانة في مملكتها ردحًا من الزمن.

والزعيم الذي حرر مالي من نير غانة هو المسمى «ماري جاطة» وقد هاجم غانة ١٢٤٠م. ودمرها وقضى على أمجادها وأقام دولة مالي،

فشملت بلاد غانة وتكرور وسنغى. ووسع نطاق فتوحاته إلى الأقاليم المجاورة إلى أن توفي ١٣٠٠م. ثم صار ملوك مالي وسلاطينها يحملون لقب منسا، وأشهرهم منسا موسى حفيد ماري جاطة، الذي حج إلى مكة المكرمة بجيش مؤلف من ستين ألف رجل وخمسمائة عبد، يحمل كل واحد منهم عصًا من ذهب يقدر بنحو أربعة ملايين من الجنيهات.

وقد أحضر منسا موسى مهندسًا عربيًا يدعى أبا إسحاق ليبني له قصرًا ضخمًا ومسجدًا عظيمًا من الحجارة. ولما أتم البناء كافأه باثنى عشر ألف مثقال من الذهب.

وأقام هذا المهندس في غرب أفريقيا ينشر فن البناء الحجري بها ويترك آثاره في مالي وتمبكتو وبرنو إلى أن توفي في تمبكتو. ويقال أنه شاعر مجيد ينسب الناس إليه بعض القصائد المتداولة في هذه البلاد.

وفي «صبح الأعشى»: «إن الملك منسا موسى بن أبي بكر مَرَّ بمصر في طريقه إلى الحج في عصر الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٤هـ ١٣٢٤م، واستقبله السلطان ناصر بحفاوة بالغة واستفسر منه عن أمور كثيرة في بلاده، ولما سئل عن سبب انتقال الملك إليه أجاب بأن ابن عمه المنسا السابق «محمد بن قو» كان يظن أن البحر المحيط له غاية تدرك فجهز مئات من السفن وشحنها بالرجال والمؤن التي تكفيهم لسنين، وأمرهم أن يسيروا في المحيط ولا يرجعوا حتى يبلغوا نهايته. فغابت السفن مدة طويلة ثم عادت منها واحدة أخبر الملك قائدها أن سائر السفن قد ابتلعتها الأمواج فلم ينج منها إلا واحدة لهذا عاد ليخبر الملك بذلك.

فلم يصدق السلطان هذا الحديث وأراد أن يقف على صحة الأمر بنفسه فأعد ألفي سفينة للرجال وألفًا للأزواد واستخلف ابن عمه منسا موسى في حكم البلاد فأقلع فكان آخر العهد به وبمن معه».

فاهتم منسا موسى بتوسيع رقاع مملكته في بلاد السودان حتى شملت أرض غانة وسنغى والسنغال وبلاد هوسا وبرنو ويوربا في نيجيريا.

وفي عهده انتشر الإسلام إلى بلاد يوربا فصار يعرف بدين مالي حتى يومنا هذا.

**مملكة سنغاي:**

تقع هذه المملكة بناحية بلاد الداهومي وفلتا العليا إلى جهات بوسا بشمال نيجيريا وكانت عاصمتها مدينة غاو بالقرب من مدينة زوغرا الحاضرة.

ولقد رأيت من تعليق المجاهد المغربي محي الدين القليبي على بعض الكتب الفرنسية المترجمة إلى العربية يقول[1]:

«إن ملوك سنغاي أصلهم من اليمن، وذلك أن أخوين فرًّا من اليمن ولجآ إلى كوكيا في مملكة سنغاي، وأصبح أكبرهما ملكًا تحت اسم ضيا اليمن».

وذلك يتفق مع ذكر السعدى في «تاريخ السودان» أنهم من اليمن نزحوا إلى السودان من زمن فرعون موسى، وكانوا أربعة عشر ملكًا في الجاهلية، تبدأ أسماؤهم بزا ولعله تحريف ضيا..

(١) انظر صفحة ٨٠ من كتاب «الاستعمار الفرنسي في أفريقيا السوداء» تأليف رئيس المكتب الخامس الفرنسي، ترجمة وتقديم الأستاذ محي الدين القليبي.

وأول من أسلم منهم زاكمن سنة ٤٠٠هـ ثم يليهم من تبدأ أسماؤهم بسن حتى جاء إلى آخرهم المسمى «سن على» الذي تولى الملك بعد وفاة أبيه المسلم ما بين ١٤٦٤-١٤٩٢م ورفع رأس سنغاي أمام العالم. وأوجد سفارة بينه وبين ملك البرتغال، حتى جاء عدد من البرتغاليين إلى بلاده وأسسوا بها مصانع إلا أنه فاسق عنيد مستبد كثيراً ما يخالف تعاليم الإسلام. ولما أنكر عليه علماء تمبكتو وجنى، وشقوا عصا طاعته، حاربهم لمدة خمسة عشر عامًا، وخرَّب فيها تمبكتو وجنى وقتل علماءها ونهب أموالهم وباع أبناءهم فكان ذلك من أسباب فوات الملك من أيدي أعقابه إلى أسكيا محمد بن أبي بكر التوري وأحفاده.

●●●

## محمد بن أبي بكر التوري

كان محمد بن أبي بكر التوري عابداً ورعًا تقيًا، وكان أصله من زندر واستوطن سنغاي وتوزّر «سن علي» وكان يمنعه من تصرفاته السيئة. ولكن «سن علي» مستبد برأيه لا يقبل النصيحة ولا يلتفت إلى الناصح، فصبر معه وداراه وأصلح كثيراً من سيئاته عند الرعية إلى أن مات، فأجمع العلماء رأيهم من أهل تمبكتو وجنى وغيرها على أن يتولى هذا الرجل العادل على دولة سنغاي. إذ توزر لمدة ثلاثين سنة وعرف فيها آلام البلاد وآمالها وأصلح كثيراً من أحوالها، واشتهر عند الناس بالصلاح والتقوى فكان أولى بتسلم الإمارة والملك.

فتولى سنة ١٤٩٤م. وتعرف بأسكيا محمد ولقد قام بمناوءته أسرة سن علي ولم يجدوا لأنفسهم من الناس أنصاراً، فذهبت ريحهم تحت عاصفة أسكيا محمد. ونزل الإمام الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي قريبًا من ذلك الوقت ضيفًا على سنغاي، ولقي من التوري حفاوة بالغة واستفتاه في بعض المسائل. وكان من جملة ما سأله حكم الشريعة في انتقال الملك إليه في المسألة التاسعة من «أجوبة الفقير على أسئلة الأمير» ما نصه:

«المسألة التاسعة في شأن بلاد سنغاي وأهلها فإنهم في زعمهم وظاهر أمرهم مسلمون، ومدينتهم فيها الجامع والجمعة والجماعة، والأذان للصلوات الخمس، وذلك بعد أن كانت كلها بلاد كفر وأهلها عبدة أصنام، فقام عليهم بعض أجداد سلاطينها فقتلوا أولئك الكفار، وملكوا البلاد المذكورة وسكنوها على الإسلام أكثر من ثلاثين سلطانًا قبل سن علي، الذي

كان أبوه مسلمًا وكانت أمه من بلدفار، وهم قوم كفار يعبدون الأصنام من الأشجار والأحجار ويتصدقون لها ويسألون حوائجهم عندها، فإن أصابوا خيرًا زعموا أن تلك الأصنام هي التي أعطتهم، وإن لم يصيبوا رأوا أنها منعتهم فلا يغزون حتى يشاوروها، وإن قدموا من سفرهم قصدوها ونزلوا عندها وفيهم كهان وسحرة يقصدونهم كذلك.

وكان سن علي من صغره إلى كبره كثير الإقامة عندهم حتى نشأ بينهم وتطبع بطباعهم في شركهم وعوائدهم. ثم بعد موت أبيه طلب السلطنة، فقام على أهل سنغاي وقاتلهم حتى غلبهم وتسلطن عليهم، كما كان أبوه ومن قبله من ملوك سنغاي.

إلا أنه لما نشأ من صغره إلى كبره بين إخوانه الكفار، كان من صفته أنه ينطق بالشهادتين ونحوهما من ألفاظ المسلمين ولكن لا يعرف لذلك حقيقة، وإنما يقول ذلك بلسانه ويصوم رمضان ويتصدق كثيرًا بالذبائح عند المساجد ونحوها. ومع ذلك يعبد الأصنام ويصدق الكهان ويستعين بالسحرة ويعظم بعض الأشجار والأحجار بالذبائح عندها والصدقة والتضرع والنذر لها وطلب الحوائج منها.

ومن صفته أيضًا أنه ما رئي قط في جامع ولا مسجد، لا هو ولا أحد في دائرته في يوم جمعة ولا غيره. وفي دائرته ألوف لا يصوم أحد منهم ولا يصلي خوفًا من عقابة إلا خفية، وأما هو فلا يحفظ الفاتحة ولا غيرها ولا يصلي الصلاة المكتوبة في وقتها، ولا يقوم ولا يركع لها بل يترك الصلوات الخمس إلى آخر الليل، أو إلى وقت الضحى، ثم يجلس كهيئة التشهد ويوميء إلى الركوع والسجود من جلوسه، وهو صحيح قوى لا علة

به، ولا يقرأ في صلاته تلك شيئًا وإنما يذكر في خفضه ورفعه اسم الصلاة، ويقول مثلاً في المغرب المغرب وفي العشاء العشاء وكذا سائر الصلوات.

ومن صفته أنه لا يتوقف في النساء على نكاح ولا غيره من الشروط الإسلامية، بل كلما أعجبته امرأة في جميع مملكته أخذها وأدخلها في بيته وفراشه، لا يبالي بزوجها ولا أحد من أهلها.

ومن صفته أنه حلل دماء المسلمين وأموالهم، وقتل من القراء والفقهاء والعباد والنساء والصبيان والرضع، ونهب من الأموال وسبى من الحريم وباع من الأحرار ما لا يحصى؛ ولم يزل على ذلك مدة عصره حتى مات.

لهذا قام محمد أسكيا فملك البلاد وأزال الفساد». هذا نص الاستفتاء وإليك الجواب.

إن سن على وجميع أعوانه وأتباعه وأنصاره ممن ينتسبون إلى العلم وغيرهم، لا شك أنهم من أظلم الظالمين الفاسقين، فجهاد الأمير أسكيا فيهم وأخذ السلطنة من أيديهم من أفضل الجهاد وأهمه.

وأما هل هم كفار أم لا: فلا يكفر أحد بالذنب من أهل القبلة، وإنما يكون التكفير بأمر من الأمور الثلاثة:

**الأول**: إما أن يكون نفس اعتقاده كفرًا، كإنكار الصانع أو صفة من صفاته التي لا يكون صانعًا إلا بها أو جحد بالنبوة.

**الثاني**: صدور ما لا يقع إلا من كافرين لم يكن كفرًا في نفسه، مثل استحلال شرب الخمر وغصب الأموال وترك فرائض الدين والقتل والزنا وعبادة الأوثان والاستخفاف بالرسل وجحد شيء من القرآن.

**الثالث**: أن يقول قولاً يعلم أنه لا يصدر إلا من جاهل، ففيه الخلف وعليه الخلف في تكفير المعتزلة وأهل البدع وعدمه وإذا علمتم ذلك تبين لكم أن الذي ذكرتموه من حال سن على كفر بلا شك. وإن كان الأمر فيه كما ذكرتم فهو كافر، وكذلك من عمل بمثل عمله، بل يجب التكفير بما هو أقل من ذلك».

وبإضافة فتوى المغيلي إلى فتاوى علماء تمبكتو وجنى وغيرها، اطمأنت نفس أسكيا محمد على إقامة دولته الإسلامية في غرب أفريقيا. وامتدت هذه الدولة حتى شملت مالى وغينيا والداهومي ونيجيريا الحاضرة، وكانت عاصمتها مدينة غاو بالقرب من مدينة زوغو.

حج أسكيا محمد في أبهة الملك التي لا تقل روعة وجلالاً من أبهة منسا موسى السابق. ولقي الإمام السيوطي وخالد الأزهري وكثيراً من أعلام الإسلام بعصره. وعاش في الدولة حوالي ٣٦ سنة وابيضت عيناه من متاعب الدولة، فتخلى عنها لابنه موسى من سنة ١٥٢٨م. واستمرت الدولة في عقبه حتى انتهت إلى آخرهم المسمى أسكيا نوح ١٥٩٤م. فسقطت تحت هجمات سلطان مراكش مولاي أحمد المنصور الذهبى، من الملوك السعديين الذين عملوا على توسيع ملكهم إلى السودان، واستولوا على مناجم الملح والذهب هناك.

**مملكة برنو وكانم:**

لقد قامت هاتان المملكتان على التعاقب حول بحيرة شاد، وتنقلت عاصمتهما بين كانم وكوكاوا كرات عديدة، مرة في كانم وكرة في برنو.

البرناويون والكانميون قوم من البرابرة جيران النوبة، في حدود مصر العليا[1]. قامت أول دولتهم الإسلامية منذ القرن الخامس الهجري، واكتسحت بلاد هوسا جنوبًا كما امتدت إلى حدود مملكتي فوروسنا، حتى حدود مصر شمالاً واتصلت بحدود كبى وصحراء ليبيا غربًا. وقد هاجمها ملوك غانة ومالي وغلبوا عليها وضموها إلى دولتهم، ثم عمل ملوكها على استقلالها.

وقد وصفها ابن خلدون في تاريخه أن لهم تغلبًا على بلاد الصحراء إلى فزان.

وكانت لهم مهاداة مع الدولة الحفصية من أولها، ووصلت هدية ملك كانم، صاحب برنو من قبل طرابلس، إلى تونس، وفيها الزرافة الغريب الخلق، فكان لها بتونس مشهد عظيم سنة ٦٥٥هـ[2].

وفي «صبح الأعشى» إن الذي فتح برنو رجل من بني عثمان بن عفان نزح إليها من مصر[3] عبر بلاد النوبة ودارفور، حتى وافي بلاد برنو وفتحها وأسس بها دولة، وكان ملوكها الأولون يعرفون باسم أوم، ثم انتقل إلى أيدي ماي، ثم إلى أيدي شيوخ.

ولقد بلغت برنوأوج مجدها أيام إدريس الأول ثم إدريس الثالث الملقب ألوما ١٥٣٤م. وكان جيشها مسلحًا بالبنادق التركية، وكان لها سفراء لدى

(١) هنا من ينسبون البرناويين إلى تبابعة اليمن أو إلى أسرة سيف بن ذي يزن، وإنهم نزحوا إلى هذه البلاد عن طريق باب المندب قبل ظهور الإسلام.

(٢) نقلت هذا الكلام من كتاب مخطوط لابن فودي، إذ لم أقف على «التاريخ الكبير» لابن خلدون.

(٣) الجزء الذي جاء فيه الكلام على برنو.

الدول العربية والإسلامية، وكان لأهلها في القاهرة مدرسة خاصة بالفقه المالكي ثم خصص لهم الأزهر رواقًا ضمن أروقة البلاد الإسلامية.

ولما زار ابن بطوطة غرب افريقيا ودخل تكدة وأكدز وتمبكتو ومالي وغيرها، أراد أن يزور برنو ولكنه رجع لما سمع أن السلطان لا يظهر للناس إلا مرة في العام ولا يخاطب الغرباء.

●●●

obeikandl.com

## الإسلام في بلاد هوسا

اتفقت أقوال المؤرخين لبلاد (هوسا) أن ملوكها السبع يرجعون في أصل تكوينهم إلى رجل عربي مسلم يعرف بـ«أبا زيد». وقال شيخنا آدم نماج الكنوي أن اسمه هوذة، نزح من بغداد في أواخر القرن الثامن الميلادي، وهام على وجهه في الأرض حتى وصل إلى دورة. ثم أصبح أحفاده ملوك (هوسا) السبع في (دوراه)، و(كانو) و(كاشنه) و(زكزك) و(زنفره) و(رانو) و(بُرَم).

وإن صحَّ هذا القول فلا يبعد أن يكون هذا الرجل من بقايا بنى أمية المشردين بقيام دولة بني العباس، إذ كان السفاح يتتبع آثارهم للقضاء عليهم. فيكون هذا الرجل العربي المسلم أول من أدخل الإسلام في بلاد (هوسا) وربما اندرست آثاره بعد ذلك، من أجل ما عرف من عادة كفار هذه البلاد من سرعة ارتدادهم إلى الكفر بعد الإيمان.

ثم إننا رأينا أن أسبق بلاد (هوسا) إلى ميدان الحضارة والعمران هي مدينة (كاشنة) التي تقع على طريق القوافل المارة من (تمبكتو) إلى (برنو) ومصر. وقد قامت بها سوق عظيمة يحضرها البرابرة والوناغرة والعرب أواسط القرن الثاني عشر الميلادي.

لم نعرف بالوضوح وقت دخول الإسلام بها حقيقة، غير أن المشهور وهو أن أهلها قدماء الإسلام، بل هم الذين حملوه إلى مدينة (كانو) في القرن الثالث عشر الميلادي.

وإذا نظرنا إلى الحركات الإسلامية التي تدفقت من الشمال إلى الغرب، والتي امتدت من (غانة) و(مالي) و(أوداغشت) فلا نشك في أن نفوذ الإسلام قد امتد إلى بلاد (هوسا) منذ وقت ظهوره وانتشاره المعروف.

وقد كتب المؤرخون أن أهل مدينة (كنو) قد عرفوا الإسلام على أيدي الوناغرة، الذين وفدوا إليها من (كاشنة). وعرف الوناغرة الإسلام على أيدي العرب والبرابرة. وذكر أحمد بابا التمبكتي: «أن بلاد (برنو) و(كاشنة) و(زكزك) قد أسلم أهلها منذ القرن الخامس الهجري طوعًا من غير استيلاء أحد عليها»[1].

والواضح أنها صارت بلادًا إسلامية في القرن الخامس، بعد أن كان الإسلام ينتشر بالتدريج قبل ذلك بزمن، إذ لم يكن هناك فتح أو استيلاء لأحد عليهم، وعلمنا بذلك أن وقت انتشاره وذيوعه غير وقت دخوله واعتناقه. وأول من أسلم من ملوك مدينة (كنو) هو عثمان زمنقاوى ثم كنجيج، ثم ابنه عمر الذي تعلم القرآن والفقه والحديث، وقرَّب إليه العلماء، وأقام الشريعة. ثم جاء بعده محمد زنفا الذي رفع شأن الإسلام في (كنو). وفي عهده حضر المغيلي إلى (كنو) وعبد الرحمن الزيتي الونكري وغيرهما من الاعلام. بل هو الذي كتب المغيلي له نصائح ووصايا ورسائل وفتاوي.

**الإسلام في بلاد يوربا:**

تقع بلاد (يوربا) جنوب نهر النيجر، وتمتد من حدود هذا النهر شمالاً وشرقًا وإلى المحيط الأطلسي جنوبًا وحدود الداهومى غربًا.

(١) انظر «ضياء السياسة» للشيخ عبد الله بن فودي، وهو مخطوط.

ويعود تاريخ قبائل (يوربا) في هذه البلاد إلى نحو ألف سنة، وكان يعمرها قوم من البرابرة والزنوج والنوبة، قبل نزول (يوربا) الذين هم من العرب. وأقدم بلاد يوربا جميعًا هي مدينة (إليفي) ثم (عويولي) ثم (إيكوبي) وهذه المدن الثلاث هي التي كانت بمثابة الأصل لسائر بلاد (يوربا) البائدة منها والقائمة حتى اليوم، ومنها نزحت القبائل المنتشرة وأسست جميع البلاد الحاضرة.

لم نسمع بخبر الإسلام إطلاقًا في مدينة (أليفي) إلا من أوائل القرن الماضي فقط. أما مدينة (عويولي) المجاورة للأقطار التي تأثرت بنفوذ الإسلام منذ قرون عديدة، فقد عرف أهلها الإسلام من عهد المنساموسي سلطان مالي في القرن الثالث عشر الميلادى فنسبوه إلى الماويين وصاروا يسمونه بدينهم إلى يومنا هذا. ولقد ثبت في تاريخ يوربا أن أهل مدينة عويولي عرفوا الملح من أيدي البيضان، الذين دخلوا عويولي في عهد الملك الأفن المسمى «عوبَالوكُنْ»، وإذا علمت أن العرب هم الذين يتاجرون إلى هذه البلاد من شمال إفريقيا، علمت أن العرب هم أولئك البيضان المذكورون.

ولقد علمت أن الحروب التي قامت بين سلطان مراكش وبين ملك سنغاى، إنما قامت من أجل الاستيلاء على مناجم الملح في بلاد تكده، بأرض سنغاي. وفي تاريخ (يوربا) لمؤلفه ميكيلى كراوثر: «إن الدعاة الإسلاميين من أهالي نوبة قد وصلوا الذروة في نفوذهم على مدينة أويولي، حتى حدث أن الملك الأفن المسمى «أجى بوَبيدَى» أصدر أمرًا بقتل عدد من رجال حاشيته، فشق الأمر على قومه ثم استطاعوا أن يخلصوهم

من هذا القتل، بتدخل أحد العلماء النوفاويين، صاحب القول المسموع لدى الملك في عهده، حيث شفع لهم عند الملك، فقبل شفاعته فيهم.

على أن النوفاويين قد استطاعوا ذلك كله بعد تغلبهم وانتصارهم على أهل عويولي في الحرب الواقعة بين الطرفين، بمنتصف القرن السادس عشر الميلادي.

ومن الأسف أن نسمع بأن الشيخ محمد بن مسنى الكشناوي المتوفَّى ١٠٧٨هـ قد ألف كتابًا سماه «أزهار الربا في أخبار بلاد يوربا» فضاع الكتاب في خبر كان، ولو عثرنا عليه لأفادنا الكثير من أخبار هذه البلاد القديمة.

ولما كتب أحمد بابا التمبكتي: «أن جميع البلاد الواقعة جنوبًا من بلاد هوسا، كبلاد يوربا وغرما وكتكل وبرغو كلها بلاد كفر»، إنما بنى حكمه هذا على عدم كون سلاطينها مسلمين، إذ الناس على دين ملوكهم، وذلك لا يمنع وجود المسلمين بها إطلاقًا.

وقد سبق ما رواه البكري في وجود الحي الإسلامي والحي الوثني جنبًا إلى جنب، تحت رعاية سلطان غانه الكافر، ووجود المساجد في الحي الوثني حتى في القصر الملكي بالذات.

وإنما ضعف شأن الإسلام في بلاد يوربا لكون ملوكها وأمرائها كفارًا، ولعدم ظهور بطل يجمع بين الدعوة والجهاد في سبيل الإسلام، كما في بلاد هوسا وغانا ومالي.

بل كان الإسلام فيها غالبًا دين الأجانب من الملاويين والهوساويين والبرناويين، وكانوا إلى الطرق السلمية أميل في دعوتهم إلى الإسلام منها

إلى الطرق الحربية. وقد صح أن أول مسجد أسس في عويولي يعود إلى ١٥٥٠م بناه الشيخ محمد نوفاوي المذكور سابقًا.

وإن القرية المسماة «ربوة السنة» قرب «إلورن» قد تأسست منذ حوالي ١٧٠٠م، وكان جميع سكانها من المسلمين النازحين إليها من البلاد المجاورة.

وكذلك قرية المسلمين البرناويين المسماة «أيج» تأسست في القرن السابع عشر. وإن الإسلام كان معروفًا في بلاد «كيتو» على يد عالم بربري يدعى «ما لم سوفو» منذ ١٧٦٠م وبلاد «كيتو» من أكبر بلاد يوربا القديمة. وقد وقعت الآن في الداهومي.

وأول مسجد في مدينة «إسين» يرجع تاريخه إلى نحو ١٧٧٠م بناه «ما لم أبوكي»، وهو كشناوي.

وأول مسجد في «لاغوس» كان في سنة ١٧٧٥م في عهد الملك المسمى «أديلي الأول».

وأول مسجد في مدينة «إيور» كان منذ ١٧٥٥م، بني في عهد ملكها «محمد لاموبي».

هكذا كان يوجد الإسلام في بلاد «يوربا» مبعثرًا ينتشر انتشارًا بطيئًا على أيدي التجار المتجولين أولاً، ثم على أيدي الدعاة المجهولين ثانيًا.

وكانوا يستعملون التيسير والتدريج في دعوتهم إلى الإسلام، لذلك ظل فيها غريبًا أو ضعيفًا أو محصورًا في بعض الجهات إلى أن قامت أخيرًا في مدينة «إلورن» دولة إسلامية تحت لواء «ابن فودي».

## الإسلام وتطوراته في وادي النيجر

لقد ظل الإسلام يتطور في وادي النيجر بين النشوء والارتقاء، ويتقلب بين الانتشار والانحسار، حتى ليكاد القارىء يتهم الكتّاب عن الإسلام، في إقليم واحد حيث يكتبون ضعفًا بعد قوة، أو كفرًا بعد إيمان، أو أثرًا بعد عين، أو جهلاً بعد علم.

لقد ابتدأ مثل ذلك من أيام الصحابة والتابعين في شمال إفريقيا، حيث يقال:

إن البرابرة قد ارتدّوا بعد إسلامهم أكثر من اثني عشر مرة قبل تمام استقرارهم عليه. وهكذا كان الأمر في سائر أقطار غرب إفريقيا حيث يرتد الأخلاف أثر إيمان أسلافهم. وقد قال العلماء: أن الرجوع إلى الكفر يكون بأدنى سبب. ومثله قول الشاعر:

عدوى البليد إلى الجليد سريعة  كالجمر يوضع في الرماد فيخمد

ومن الغريب أن تبقى بعض القبائل وثنية تحت حكومة بعض الدول الإسلامية القوية، مثل غانة ومالي وسنغى وبرنو وسوكوتو.

وربما نفسر هذه الظاهرة برغبة بعض الأمراء في بقاء تلك القبائل على الكفر، لأن إسلامهم يحرمهم الجزية التي يستفيدونها منهم كل عام.

على أن تسامح الإسلام وعدم إكراه الناس على الدخول فيه يدفع الإسلام أحيانًا إلى كفة الرجحان، كما ينزل به إلى كفة النقصان أحيانًا أخرى.

ويتعرض الإسلام للضعف والنقصان حيث تدور دولته، إلى تدهور بموت مجاهد الناحية من الأمراء أو العلماء، وتولي من هو أقل منه نفوذًا، أو أضعف منه قوة، فيرتد الذين أسلموا للقوة القاهرة لا للعقيدة الراسخة. أو يرتد ضعفاء الإيمان إذا تعرضوا للاضطهاد من ذوي الأديان الأخرى، ولم يكن هناك من يدافع عنهم ويأخذ بيدهم.

وكذلك يترجح الإسلام حيث نجد لباقة المسلمين في المعاملة، وإجادتهم الحكمة في الدعوة، حتى يتمكنوا من الإقامة على دينهم ومباشرة شعائره بكل حرية تامة؛ بين الكفار الأقوياء من غير أن يتعرضوا للخطر والاضطهاد.

ولا يزالون يدعونهم إلى الإسلام حتى يقبل من أراد الله به خيرًا منهم أو من أبنائهم.

وللإسلام في غرب إفريقيا أطوار أربعة؛ ربما اقتصرت ناحية ببعضها دون البعض. وربما اجتمعت الكافة في الناحية الواحدة.

**الأول**: دور النفوذ والتهيؤ. **والثاني**: دور الاعتناق والانتشار.

**والثالث**: دور النضوج والتحكم. **والرابع**: دور التقهقر والتدهور.

أما دور النفوذ -فهو في القرن الأول الهجري -الذي طبق فيه النفوذ الإسلامي جميع العالم، خصوصًا قارتي آسيا وإفريقيا، وما من قطر أو مصر في هاتين القارتين إلا وقد تأثر بالنفوذ الإسلامي منذ ذلك القرن الأول الهجري. ومن بين ذلك جميع الأقطار والبلدان العامرة حينذاك بغرب إفريقيا.

وهذا الدور يهيىء الناس للدور الثاني.

أما الدور الثاني الذي هو الاعتناق والانتشار. ففيه ينتشر الإسلام انتشاراً بطيئًا في بعض الجهات على أيدي التجار المتجولين أو على أيدي الدعاة المجهّولين أو ينتشر انتشاراً هائلاً على أيدي الغزاة المجاهدين والملوك الفاتحين.

أما الدور الثالث الذي هو النضوج. فمن حيث يتبلور الإسلام في أذهانهم ويمتزج الإيمان بدمائهم، حتى يصيروا ينظرون بعين الإسلام ويتكلمون بلسان الإسلام ويحكمون بشريعة الإسلام.

أما الدور الرابع فذلك حين يعتريهم الضعف والذبول والتدهور والخمول. إما بموت قائدهم أو ملكهم أو أميرهم أو إمامهم، ووقوع التنازع والتناحر بينهم، فتذهب ريحهم وتضعف قوتهم، فتسام دولتهم بالخسف وكرامتهم بالبخس. وكان الناس في غرب إفريقيا عمومًا على ثلاثة أقسام:

**الأول**: المسلمون الذين آمنوا بالله وأخلصوا له دينهم، وصدقوا ما عاهدوه عليه.

**والثاني**: الكافرون الذين لم يهتدوا إلى الإسلام ولم يرتضوا بالكفر بديلاً آخر.

**والثالث**: المنافقون الذين يترددون بين هؤلاء وهؤلاء يظهرون الإسلام بلسانهم، ويضمرون الكفر في قلوبهم، ويشاركون المسلمين في شعائر دينهم. وإذا جاءت أعياد الكفر اندفعوا معهم وشاركوهم فيها أيضًا.

وكانت كفة الإسلام ترجح دائمًا على كفة الكفر، حيث كان عدد المسلمين يزداد ولا ينتقص، ويدخل الوثنيون في دين الله وحدانًا وزرافات.

إذ قد تعود الوثنيون أن يستشيروا كاهنهم لمعرفة ما يصلح من الأديان لكل مولود لهم جديد، فكثيراً ما يتنبأ الكهنة بصلاحية الإسلام لكثير من الأطفال فيعمل الآباء بما يشير لهم الكهنة، فيرسلون الأولاد إلى الأئمة والعلماء ليمرنوهم على التعاليم الإسلامية من الصغر.

وكثيراً ما يكون بعض الملوك والأغنياء عقماء. فيتوسلون ببعض العلماء إلى ربهم ليرزقوا ولداً يرث ملكهم، أو يكونون ممن لا يعيش له أولاد فيشير العلماء بأن يخلوا سبيل ما يولد لهم للإسلام وأن يسموه محمداً فيعملون بإشارة العلماء فيرزقون ولداً يبعثونه على أثر انفطامه من الرضاعة إلى الشيخ أو الإمام ليربيه تربية إسلامية صحيحة.

هكذا الحال إلى أن وطئت أقدام التبشير المسيحي أراضي هذه البلاد، فتغير مجرى التاريخ فصارت الصليبية ثالثة الأثافي للكفر والنفاق.

وكما أخذت الطريق على أبناء الوثنيين لتردهم من الإسلام إلى النصرانية، وقفت للمسلمين بمرصاد التطبيب والتعليم والتوظيف. فنصّرت كثيراً من أبناء المسلمين، بل من أبناء الأئمة والعلماء، الذين دخلوا مدارس التبشير للتعليم ومستشفياته للتعالج.

فالعلم والعلاج والعمل عسير على كل من احتفظ بعقيدته وعمل بشريعته، إلا من رضي بالمسيح ربًا، وبالصليب خلاصًا، وبالإنجيل دليلاً وكتابًا.

وفي الدواوين الحكومية والشركات التجارية لا يوظفون من يتسمى باسم الإسلام والعربية، مثل محمد وعبد الله. وإن توظف فلا يترقى في

وظيفته إلا ما جاء من ذلك على سبيل ذر الرماد في العيون أو تكميم أفواه الصائحين.

أنفقت الصليبية كل إمكانياتها للقضاء على الثقافة الإسلامية ولغتها في كل مكان، فصارت المعاهد التي تدرس العربية والإسلام محرومة من الاعتراف والاعتبار، حتى تموت حتف أنوفها. وصار المتخرجون منها يعيشون على هامش الحياة، ويعدون في سقط المتاع حتى يكرهوها بأنفسهم ويبغضوها إلى أبنائهم.

**أصناف من نشروا الإسلام:**

**في غرب افريقيا**

يمكن حصر الذين نشروا الإسلام في غرب إفريقيا في ثلاثة أصناف: -

**الأول:** هم الغزاة الفاتحون، الذين أقاموا دولة الإسلام في مختلف ربوع إفريقيا.

**الثاني:** هم التجار المتجولون الذين ينقلون البضائع والسلع التجارية من مكان إلى مكان.

**الثالث:** هم الدعاة الصوفيون الذين جمعوا بين نشر الإسلام ونشر محاسن الصوفية وطرقها.

أما الغزاة الفاتحون، فهم الذين عملوا على نشر الإسلام أولاً في غرب إفريقيا ووطدوا السبل ومهدوا الطرق بفتوحاتهم، وأقاموا دولاً إسلامية بعد نجاحهم، وهم من أيام عقبة بن نافع الصحابي، ومن ولى على إفريقيا من

بعده حتى الأدارسة والمرابطين والموحدين والحفصيين والملاويين والوناغرة والسنغاليين والفلانيين والبرناويين.

أولئك الذين مهدوا السبل للدعاة المجهولين، الذين كانوا يتطوعون للدعوة في أماكنهم، ويتوزعون لها في أقاصيهم وأدانيهم، لا تبعثهم حكومة، ولا تشرف عليهم إدارة، ولا تنظمهم قيادة، بل هم مبعثرون في تلك البقاع يستعملون مختلف الوسائل الممكنة لنجاح دعوتهم.

أما التجار المتجولون فقد علمت أن القوافل التي وصلت بين شمال إفريقيا وغربها، منذ تاريخ متوغل في القدم، كانوا من الفينيقيين والقرطاجنيين والرومان والعرب، وصح أن العرب في صدر الإسلام كانوا ينقلون بضائع الأسلحة كالسيوف والرماح والملابس الصوفية والحريرية من شمال إفريقيا إلى غربها، ويتوزعون لبيعها في غانه ومالي وتكرور وسنغى وكاشنه وكانو وبرنو، ثم يعودون من هذه البلاد بريش النعام والعاج والعبيد.

وكانوا بطبيعة الحال يسافرون جماعات وزرافات لتبادل هذه السلع وتلك البضائع، مزودين بالأسلحة التي تحميهم من المعتدين. وإذا حلّوا ببلد أقاموا في حي لهم مستقل عن الحي الأصلي الوثني، وكوّنوا لأنفسهم جالية إسلامية تقيم إقامة دائمة بالبلد، يتوضؤون ويقيمون الصلاة جماعات. وتحيي بها شعائر الإسلام كعادتهم في بلادهم.

وإذا جاء شهر رمضان أحيوا لياليه بالاجتماعات للتراويح، وتلاوة القرآن ومجالس الوعظ والذكر.

وإذا أفطروا أو تسحروا تزاحموا جميعًا على طعام الإفطار والسحور في وقت واحد بصورة جذابة وكيفية مغرية.

وإذا حل فيهم عيد الفطر احتفلوا به وخرجوا لصلاته في المصلى، يظهرون في ذهابهم وإيابهم مزايا الإسلام ومحاسنه.

وإذا أدركهم عيد النحر عظموا ضحاياهم وقدموها قربانًا لله، ثم فرقوا لحومها بين فقرائهم وتزاوروا فيما بينهم.

كل هذا وذاك مما يؤثر على عقول الصغار من غير المسلمين، ويلفت أنظار الكبار ممن شرح الله صدورهم للإسلام، فيدخلون مع المسلمين في دين الله. ويعد من قبيل ذلك تسامح المسلمين المقيمين مع غيرهم، في التعامل معهم بالخلق الحسن، والتودد إليهم بالقول اللين، وتأليف قلوبهم بالهدايا والهبات، ومداواة مرضاهم وإغاثة ملهوفيهم حتى يفضلوا دين الله على دين آبائهم فيدخلون فيه.

أما الدعاة الصوفيون فهم العباد والنساك المعروفون بلزوم الأذكار والأوراد، والإعراض عن زهرات الدنيا وزخارفها، والزهد في ملذاتها وشهواتها. لهؤلاء الصوفيين جهود ملموسة في نشر الإسلام ونفوذ محسوسة في إقامة الدول والممالك الإسلامية.

ولم تقم دولة المرابطين إلا بفضل النزعة الصوفية.

لو لم يكن التصوف رياضة روحية تمرن النفوس على إنكار الذات والفناء في الله والسمع والطاعة للقائد الروحي..

ولو لم يكن شيخ الطريقة مسموع القول، متبوع الحال.

ولو لم يكن المريدون منظمين ومستعدين لتلقي الأوامر وتنفيذها على الفور . . ولو لم يكن شيء من ذلك كله . .

لما استطاع عبد الله بن ياسين أن يؤسس دولة المرابطين! .

ولما اقتدر «اسكيا محمد» على إقامة دولة سنغاي، والسير بها في موكب الإسلام! .

ولما تسنى للشيخ عثمان بن فودي أن يجدد قوة الإسلام في نيجيريا! .

ولما ساغ للمهدي محمد بن عبد الله أن يتغلب على الجيش الإنكليزي الذي يقوده «غردون» في السودان العربي! .

ولما نجح الحاج عمر الفوتى في مقاومة الاستعمار الفرنسي نحو ربع قرن في فوتا! .

ولما تمكن السنوسيون من مقاومة الاستعمار الفرنسي والإيطالي في ليبيا؟!

وأهم الطرق الصوفية التي لعبت دورًا هامًا في غرب إفريقيا ثلاث وهي القادرية والتجانية والسنوسية .

ولقد كانت الطريقة عند الصوفيين رابطة روحية، تتخذ التعبد والتنسك وسيلة لإصلاح النفس والمجتمع، وتقوم بالرياضة التي تسمو بها النفس إلى درجة الاتصال الروحي بالملأ الأعلى، فيصير كل ما عدا الله باطلا حقيرًا في أعينهم وفي ذلك تحقيق لمعنى: لا إله إلا الله عندهم .

وإن كانت الصوفية قد خرجت اليوم عن مقصدها الأول، وتسربت إليها

البدع والأفكار الأجنبية، فلقد أدت خدمتها الجليلة للدعوة الإسلامية خصوصًا في غرب إفريقيا، حتى لم يبقَ مجال لنكران فضلها في نشر الإسلام!.

**الطريقة القادرية**

الطريقة القادرية رابطة روحية أسسها الشيخ عبد القادر (٤٧٠- ٥٦١هـ) ومركزها الأصلي في بغداد، ولكنها منتشرة في مختلف البقاع بالعالم.

وأول من نشرها بالمغرب العربي هو الشيخ أبو مدين شعيب بن الحسن الأندلسي، الذي اجتمع بالشيخ عبد القادر الجيلاني على جبل عرفة، عام حجه، وخلع عليه الخلعة الصوفية. ولما رجع إلى المغرب نشر بها العلم والطريقة إلى أن توفي ٥٩٤هـ.

وأول من نشرها في بلاد السودان الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني ثم سيدى أحمد البكاء الكنتي بالقرن الخامس عشر الميلادى.

ثم الشيخ محمد فاضل بن مامين وابنه ماء العينين والشيخ سعد أبيه.

ثم انتشرت القادرية على يد الشيخ المختار الكنتى (١٧٨٠- ١٧٩٩م).

ثم الشيخ عثمان بن فودى الفلانى، وله في الطريقة القادرية أشعار ومؤلفات منها: «السلاسل الذهبية» و«السلاسل القادرية» و«تبشير الأمة الأحمدية بفضائل الطريقة القادرية» ولابنه السلطان محمد بللو كتاب: «مفتاح السداد» وكان جميع مشايخ ابن فودي وإخوانه وتلاميذه منتسبين للقادرية. وشاع أن السلطان محمد بللو بن عثمان انتقل من القادرية إلى التجانية، على يد الحاج عمر الفوتي، ولكن أصحاب السلطان قد فندوا ذلك الخبر.

وللوزير غطاط بن ليم في ذلك كتاب سماه: «المواهب الربانية في تحقيق الطريقة القادرية»، ولابنه الوزير عبد القادر أيضًا فيه كتاب آخر؛ وكتاب «تسديد الخواطر» للشيخ ابن سليمان.

واشتدت عناية أهل كنو بإحياء آثار القادرية من مطلع القرن الماضي؛ وأول من نشرها هناك «ما لم كبر» الذي أخذ عن أحمد البكاء الكنتي، ثم الشيخ يحيي الصرصوري الطرابلسى.

ثم الشيخ محمد المحمود المغربى.

ثم الشيخ سعد الغدامسي البليلي الفندكي، وهو أول من بنى الزاوية القادرية في كنو، ثم الشيخ أبو بكر الفندكي الكنوي.

ثم الشيخ آدم العطار نمعجي الفلكي، ثم صديقنا الشيخ محمد ناصر الكبري الذي انتهت إليه الرئاسة القادرية اليوم في ديار نيجيريا.

**الطريقة التجانية**

نشأت هذه الرابطة الروحية في الجزائر على يد الشيخ أحمد التجاني ١٧٣٧ - ١٨١٥م. وأعظم من نشر هذه الرابطة في غرب أفريقيا هو الحاج عمر الفوتي الذي ولد ١٧٩٨م، ، وأخذ الطريقة من الشيخ على حرازم، صاحب «جواهر المعاني» والتلميذ الأكبر للشيخ أحمد التجاني.

وهو أول من نشر هذه الطريقة في بلاد السنغال، ولما اتصل بالسلطان محمد بللو بن عثمان في سوكوتو، وساعده على نشر هذه الطريقة حتى أشيعت الأنباء بانتساب محمد بللو إلى التجانية.

عـاد عمر الفوتي إلى بلاده وقد تأثر بأعمال السلطان بللو وأبيه عثمان ابن فودي. فقام هو في بلاد فوتا بالجهاد المماثل، وقاوم فرنسا مقاومة شديدة.

ثم اشتهر من مشايخ التجانية حماه الله في مدينة انيور ١٩٠٠م. ولقد قام بينه وبين التنواجيين القادريين حوادث أليمة ١٩٢٩م. مما حمل فرنسا على نفيه إلى ساحل العاج مدة، ثم أطلق سراحه فعاد إلى نيور، فانتهز فرصة هزيمة فرنسا أمام جيش هتلر فاستعد لتحرير البلاد من نير الاستعمار ولكنه لم يكتب له النجاح فمات ١٩٤١م.

هـذا وقـد زار نيجيريا ١٩٤٨م الحفيد الرابع للشيخ أحمد التجاني السيد ابن عمر ولقي الحفاوة البالغة لدى المسلمين عمومًا والتجانيين خصوصًا.

ومن جلة المشايخ التجانيين الذين نشروا هذه الطريقة في غرب أفريقيا السيد أحمد سكيرج صاحب «كشف الحجاب عمن تلقى مع التجاني في الأصحاب». وللتجانيين عمومًا في هذا العهد قطب كبير هو الشيخ إبراهيم ابن عبد الله أنياس. وهو أكثر المشايخ أتباعًا في غرب أفريقيا، يزورونه كل عام ويحجون معه في موكب واحد ويستقدمونه لبلادهم في مختلف المناسبات، يتبركون به وأكثرهم في نيجيريا نفوذًا هو صديقنا الشيخ أحمد التجاني بن عثمان البربري في مدينة كنو، والشيخ أبو بكر عتيق، والشيخ ما لم ثاني كافنغا.

**الطريقة السنوسية:**

مؤسسها سيدي محمد بن علي السنوسي، المولود ١٧٨٧م المتوفَّى ١٥٨٩م، أنشأ زوايا وأربطة حول برقة وفزان وشاد وكانم وبرنو، وعمل على نشر العلم والإسلام في تلك الربوع.

وقد ضرب أتباعه أمثلة رائعة للناس في مواقفهم الحاسمة مع فرنسا وإيطاليا وقد استولوا على مدائن أكدز وزندر ودامت بأيديهم مدة حتى استردتها منهم فرنسا ١٩٤٠م.

واستطاعوا أن يصمدوا أمام القوات الإيطالية ردحًا من الزمن حتى سقطت مع ألمانيا في الحرب العالمية الثانية.

واستطاعوا أن يقيموا دولتهم السنوسية وعلى رأسها الملك إدريس الأول، الذي نودي به ملكًا على ليبيا ١٩٤٧م وقاد بلاده إلى التحرير التام عام ١٩٥١م.

وأحيا الزوايا السنوسية وجمعها في إدارة خاصة كما طور معاهدها، حتى صارت جامعة إسلامية على طراز الجامعات الحديثة.

وقد تقدم الملك إدريس في العمر، وتحكمت في دولته بطانة خبيثة تعاونت مع الاستعمار على حين غفلة منه، فوضعت نقاطًا سوداء في صحيفة ليبيا البيضاء عند اعتداء إسرائيل على القدس الشريف، ولذلك قامت ثورة عسكرية أطاحت بالحكم الملكي وأعلنت الحكم الجمهوري عام ١٩٦٩م[1].

●●●

(١) بقيادة العقيد معمر القذافي.